12- المسرح

تمهيد:

المسرحية قصة حوارية تكتب من أجل أن يعرضها الممثلون أمام جمهور المشاهدين على خشبة المسرح ، فالعنصر الغالب في لغة المسرحية هو الحوار الذي يجعلها طيعة للتمثيل.

والأدب التمثيلي أو المسرحي قديم في آداب اليونان والرومان، لكن أدبنا العربي القديم عزف عن هذا الفن وعن نقله وترجمته إلى اللغة العربية لأنه ارتبط بالوثنية وتعدد الآلهة، والدين الإسلامي يرفض هذا المعتقد، ثم إن العرب لم يعرفوا قديما دُور المسرح، أو المسارح المشيدة في الطبيعة كالتي اتخذتها الأمم التي عرفت المسرح. كما أن الشاعر العربي كان أميل إلى الذاتية والوجدانية فعبر عن ذلك عن طريق الشعر الغنائي.

بدايات المسرح العربي:

لم يعرف المسرح في الأدب العربي إلا حديثا، متأثرا بالغربيين، حين أتيح لأدبائنا العرب الاحتكاك بالأوربيين والسفر إلى بلادهم، فقرأوا عنهم المسرح وشاهدوا العروض المسرحية، ويذهب علي بوملحم إلى أن **مارون النقاش** هو الرائد الأول للمسرح فبعد رحلته إلى أوربا عاد إلى لبنان وألف مسرحية (البخيل)، وعلم جماعة من أصدقائه ليمثلوا أدوار المسرحية عام 1848، كما كتب مسرحية (أبي الحسن المغفل أو هارون الرشيد) ومثلت في بيته عام 1850.

وإن كان ميلاد المسرح العربي في لبنان فإنه سرعان ما هاجر كتاب المسرح وفرقهم المسرحية إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر، لأنها تتمتع بشيء من حرية التعبير، ثم إن الخديوي إسماعيل كان قد أنشأ (دار الأوبرا). ومن هذه الفرق المسرحية فرقة **سليم النقاش**، وفرقة **أحمد أبي خليل القباني** التي مثلت من النصوص المسرحية (أنيس الجليس)، و(عنترة العبسي)، ثم هاجر إلى مصر الأديب اللبناني **جورج أبيض** الذي تلقى فن التمثيل في باريس، وقدم إلى المسرح (جريح بيروت)، و(عطيل)، و (أوديب). وتجدر الإشارة إلى أن المسرح كان يقدم بالعامية قبل أن يرتقي إلى اللغة الفصحى.

وفي مصر كان **أحمد شوقي** من الأدباء الرواد في ميدان المسرح الشعري حيث بدأ منذ عام 1927 بكتابة مسرحياته الشعرية المتتابعة وكانت أولاها (مصرع كليوباترا)، ثم (مجنون ليلى، وعنترة، وقمبيز، وعلي بك الكبير، والست هدى).

ويبدو تأثر شوقي بالمسرح الكلاسيكي حيث صاغ مسرحياته شعرا، واختار موضوعاتها من التاريخ العربي أو المصري.

مسرح توفيق الحكيم:

بعد هذه الجهود «وفي أوائل النصف الثاني من القرن العشرين ظهر نوابغ التأليف المسرحي يتقدمهم شيخهم توفيق الحكيم، وينجح الحكيم في مهمته بسبب تمكنه من الثقافة الغربية وإتقانه الفرنسية».

وحق لتوفيق الحكيم أن يوصف بشيخ نوابغ التأليف المسرحي، فقد خلف فيه ما يربو عن عشرين أثرا ناهيك عن القصة والرواية، وإن ترجمة كتب الحكيم إلى مختلف اللغات الأوربية لا سيما الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، لدليل على مكانة هذا الأديب، وذيوع صيته في الساحة الأدبية.

ومن أهم ما أبدع يراع الأديب مسرحية (أهل الكهف)، وهي مقتبسة من القرآن الكريم كتبها توفيق الحكيم بعد عودته من فرنسا إلى مصر، ويعلق عليها في مقدمة كتابه (أوديب ملكا) بقوله: «عدت إلى مصر، ولم يمض قليل حتى كتبت قصة "أهل الكهف"، كان ذلك عام 1927، [...]كان الذي قصدته من وضع "أهل الكهف"، هو إدخال عنصر "التراجيديا" بمعناها الإغريقي القديم الذي احتفظت به: الصراع بين الإنسان وبين قوة خفية هي فوق الإنسان، وحرصت أن يكون منبعي، لا أساطير اليونان بل القرآن».

كما اقتبس موضوعات بعض مسرحياته من الأدب الكلاسيكي الغربي الذي نهل بدوره من التراث اليوناني مثل مسرحيات (براكسا أو مشكلة الحكم "1939"، بجماليون "1942"، الملك أوديب "1949"). «إن الثقافة الكلاسيكية وإن كانت قد تسربت إلى أدب توفيق الحكيم من خلال ثقافته الفرنسية إلا أنها تغلغلت في تكوينه الفكري وأصبحت تشكل ركنا هاما في أعماق وجدانه وعبقريته الخلاقة» ، وتوفيق الحكيم يريد من وراء العودة إلى التراث الإغريقي أن يصل بينه وبين الأدب العربي ويمحو القطيعة التي كانت بينهما منذ

قرون حين اتصل العرب المسلمون بمختلف الثقافات في العصر العباسي، وهو يعترف بذلك وينادي به في قوله: «وظلت القطيعة بذلك قائمة بين الأدب العربي والأدب الإغريقي...وباستمرار هذه القطيعة تعذر على المسرح أن يقوم على أساس وطيد، وأن يجد مكانا لدينا، في أروقة: الأدب، والفكر، والثقافة،!...لا بد إذن من الصلح بين الأدبين، إذا أردنا من الأدب العربي أن يقر، في تاريخه العريق، هذا القالب التمثيلي من الشعر أو النثر إقرارا له قيمة وبقاء».

وفي عام 1934 كتب مسرحية (شهرزاد) ذات الأصل الفارسي الهندي، وله أيضا (سليمان الحكيم، والأيدي الناعمة، والصفقة، ولعبة الموت، وأشواك السلام، والسلطان الحائر، و يا طالع الشجرة، والطعام لكل فم، وشمس النهار، ومصير صرصار، والورطة، والدنيا رواية هزلية، والحمير) ، وعن وصف مسرح توفيق الحكيم بالذهني يقول الكاتب في مقدمة مسرحية (بجماليون): «ما الذي حدث لي إذن بعد تلك الأعوام!... كيف صرت إلى هذه الخيبة، حتى أكتب روايات إذا أصغى إليها الكبار ناموا؟!... السبب بسيط: هو أني اليوم أقيم مسرحي داخل الذهن، وأجعل الممثلين أفكارا تتحرك في المطلق من المعاني، مرتدية أثواب الرموز! [...]، لهذا اتسعت الهوة بيني وبين خشبة المسرح، ولم أجد "قنطرة" تنقل مثل هذه الأعمال إلى الناس غير: "المطبعة"».

لكن مسرح توفيق الحكيم ليس كله ذهنيا فقد اهتم بالمجتمع وما يجري فيه وما يتوق إليه، ويدخل في هذ ا المضمار من مسرحياته (الأيدي الناعمة) التي تقوم على فكرة أن الشعب سيحقق قوته واكتفاءه إذا ما كان جميع أفراده عاملين لا متواكلين على الإقطاعيات التي ورثوها عن أجدادهم الذين بدورهم نهبوها من الشعب.

كما أن مسرحية (الصفقة) هي الأخرى تسير في هذا السياق حيث تصور اتحاد الفلاحين وجمعهم المال من أجل شراء قطعة أرض كبيرة كانت شركة بلجيكية تنوي بيعها، إلا أنهم يفاجأون بزيارة الإقطاعي (حامد بك) لزيارة قريتهم ، فيتوجسون خيفة من مجيئه ظنا منهم أنه جاء لأخذ الصفقة، فيجمعون له المال لصرفه، لكنه طلب منهم الفتاة (مبروكة) كخادمة لأطفاله، وبعد أن أخذها تظاهرت بأنها مريضة بالكوليرا، فيسرحها لتعود إلى خطيبها، ويفرح الفلاحون بفوزهم بالصفقة.

ويحسن أن نسوق نموذجا من بداية المسرحية بعد أن تجمع أهل القرية في ساحة (الكفر):

«الفلاحون: (يلحون) ندبح الدبيحة يا معلم "شنودة" ؟...

شنودة: (وهو منهمك في فحص الورقة) صبركم علي صبركم...

الفلاحون: كلنا دفعنا يا معلم شنودة...

شنودة: (صائحا) حلمكم...حلمكم لحين مراجعة الكشف...

الفلاحون: (يزومون) آه من الكشف... ومراجعة الكشف!...

شنودة: طبعا... مراجعة الكشف...شيء لا بد منه...لا بد أمر على الأسماء كلها...وأحصر المبالغ المدفوعة...وأنا سبق نبهت عليكم: إذا تخلف واحد منكم عن الدفع الصفقة تبطل!...

عوضين: حصل...وسبق قلت لنا، [بعضمة] [1] لسانك إننا دفعنا كلنا قسط الشركة وزيادة، وأمرتنا نجهز الدبيحة، ونحضر الغوازي والمزمار، ونعملها فرحة العمر...».

و في شأن استعمال العامية يذهب محمد مندور إلى أن توفيق الحكيم قد اعتمد اللغة الثالثة كما أسماها، وهي لغة تقوم على التقريب بين اللغة الفصيحة واللغة العامية. وبعد نجاح توفيق الحكيم تواتر التأليف المسرحي لدى رعيل من الأدباء **كمحمود تيمور**، و**أحمد رضا حوحو**...

[1]- هكذا وردت، ولعله خطأ مطبعي.